الخـــاتـــمة

أحس المفكرون العرب بالقلق ، وجعلوا يبحثون عن مذهب أصيل ، بعد مسيرة طويلة مع الحضارة الاوروبية : لم يستطع العرب خلالها ان يعبروا عن أنفسهم ، وعاشوا على هامش الحضارة يستهلكون منجزاتها دون أن يساهموا فى صنعها ، وأحسوا اخر الأمر بالغربة ، وهى غربة من نوع جديد تختلف عن الغربة الأوروبية فالاخيرة هى نتيجة موقف فكرى ، ركز على الادراك المباشر وضخم من دور العقل ، مما ادى الى تجزئة الانسان ، والى الاحساس الفاوستى الذى يعكس موقف الأوروبى المعاصر فى نظر كثير من النقاد ، أما غربة العربى فليست غربة فكرية أو غربة عاطفية ، بل هى غربة أهل الكهف الذين اكتشفوا أن الزمن يتعامل مع أشياء ليست من صنعهم ، فاكتفوا بموقف الاندهاش ، والتعلق ببريق الأشياء دون الغوص الى جذورها •

والحل صعب فهو يكمن فى طريق جديد ، يبدأ من الواقع ويفلسفه ، ويقدم رؤية معاصرة لمواقف الحياة المختلفة ، لقد خففت الحضارة الاوروبية من غلوائها بعد أزمتها الراهنة ، وأفسحت المجال أمام نظرات أخرى مختلفة ، أخذت تنافسها بل وتزاحمها كالنظرة الأمريكية والروسية والصينية واليابانية وقد آن أن نضيف « والنظرة العربية » ، خاصة بعد الاستقلال الذى حتم على الشعوب العربية أن تفكر فى مصيرها منفردة ، حقا أن الشعوب العربية تمر اليوم بمرحلة اضطراب وتمزق ، ولكنها أشبه بفورة المراهقة التى تسفر فى النهاية عن شخصية مسئولة ازاء التحديات المطروحة ، ومن يدرى ربما تسفر أيضا عن الحل الذى ينتظره الانسان المعاصر •

ان الاستعمار لم يصادف فى البلاد العربية منطقة فراغ • وقد هب العالم العربى والاسلامى لمواجهة الحملة الفرنسية من منطلق دينى يخشى على المقدسات ، وحين رحل الاستعمار لم يعان العرب ما عانته

شعوب أمريكا اللاتينية وبعض شعوب أفريقيا ، ممن أحسوا بالحنين الى الفردوس المفقود • والذى ضاع مع رحيل الاستعمار • فواجهوا المسئولية منفردين ودون رصيد كبير من التراث القومى •

لن نستطيع أن نتخلص من القديم دفعة واحدة حتى لو أردنا ، فان هذا غير سليم للصحة النفسية والاجتماعية ، ولن نستطيع فى الوقت نفسه أن نعيش الماضى كما هو ، فالابن لا ينضج الا اذا قتل الأب داخله كما يرى فرويد ، ولا يكفى أن نقول « يجب الجمع بين القديم والجديد » فطالما ردد الباحثون هذه النصائح ، ولا يزالون يرددونها من أجهزة الاعلام وعلى أعمدة الصحف ، ولكن المشكلة لاتزال قائمة ، والسؤال لايزال مطروحا : وكيف يكون هذا الجمع بين القديم والجديد ، وكيف يمكن أن يتحول الى جزء من الحياة المعاصرة ؟

ولست أقدر أن أقدم الاجابة ، ولن يقدر أحد آخر على ذلك ، فلا تزال المرحلة طويلة وتحتاج الى دراسات تتناول جزئيات الحياة ، وتستوحى التراث ولا تحتقره ، وتقبل على الحضارة المعاصرة ولا تخشاها ، لقد أنهيت فصل « الحكمة الساكنة أو المعاصرة » بمعادلة تنتهى بعلامة استفهام (عطيل + عمر — الحجاج = ؟) وكل رمز فى المعادلة يشير الى مرحلة تاريخية : مرحلة الطفولة ثم مرحلة التاريخ وأخيرا مرحلة السقوط ، التى لا نزال نعيش آثارها ، ولا تزال علامة الاستفهام مطروحة تتحدى •

* * *

ان شيئين فى هذا الكتاب يبعثان الأمل فى مستقبل الوسطية العربية وفى قدرتها على مواجهة التحديات المعاصرة ، وهما صفة العدالة وصفة الحركة •

فقد رأينا أن الميزان هو رمز المرحلة التاريخية ، ولم يكن هذا الرمز من باب المهارة التشبيهية ، بقدر ما كان حقيقة نسلك اليها من طرق مختلفة تلتقى فى النهاية عند هذا الرمز ، ان الوسطية التاريخية تعنى فى تحليلها النهائى العدل كما نسب الطبرى الى أهل التأويل ، والعدل انما يكون فى الموازنة بين الأمرين والوقوف عند الشعرة الرقيقة ، أو بتعبير آخر : التزام الصراط المستقيم ، ذلك الالتزام الذى يكون « برعاية الحد الأوسط فى كل الأمور » كما قال الجرجانى ، وبذلك انقفلت الدائرة وكل طريق على الرغم من اختلافه يؤدى الى النتيجة نفسها ، وهى أن العدالة ليست صفة تمتدح ، أو شعار يكتب بماء الذهب ويعلق على الجدران ، ولكنها هى المذهب فى حقيقته ، ويوم أن اختلت تلك العدالة فى التاريخ العربى كانت السقطة ثم مرحلة الفعل ورد الفعل • ومن ثم فليس من باب الصدفة أن نجد صفه العدالة قد ألقت بظلالها على مختلف نواحى التطبيق ، ففى فصل الأخلاق وجدناها هى الصفة الرئيسية التى ترتد اليها بقية الصفات ، وأن الأخلاق الاسلامية تقوم عليها ، يقول الغزالى « فان المطلوب هو العدل والقسط فى الصفات والأخلاق كلها وخير الأمور أوساطها فاذا جاوز الوسط الى أحد الطرفين عولج بما يرده الى الوسط » ، ويعرف ابن قيم الأدب بأنه الحد بين الجفاء والغلو ويضرب من الأمثلة ما يكشف على أن حقيقة الأدب انما هى العدل • وفى فصل الفن وجدنا أن الفن العربى لا يقوم على مجرد التزيين والزخرفة ، أو على أساس من وحدة الوجود التى تلغى الاثنينية ، بل يقوم على الشعرة الرقيقة التى تعادل بين الأمرين ، وقلنا فى هذا المجال « حقا فى الفن العربى حس وبهجة ومتعة ولكن فى الفن العربى قلق وبحث عن المطلق ••• فاذا كان هناك صراع بين ما يسمى الفن للفن أو الفن للحياة ، فان الوسطية العربية يمكن أن تحل هذا الصراع وأن تصلح بين الفرقاء ، فتقدم لنا مذهبا ثالثا وهو : الفن للفن وللحياة معا » والأدب وجدناه أيضا يقوم على أساس من الوحدة التركيبية ، وهى وحدة تتجاور فيها الأجزاء

وتتماس دون أن يفنى بعضها فى بعض ولكل جزء كيانه الخاص ، فلا يوجد سيد ومسود ولا تابع ومتبوع ، ولا توجد نقطة هى مركز الدائرة ولالحظة هى لحظة الذروة ، ان كل الأجزاء تنضام وتتجاور ولكنها تتساوى أمام الوظيفة العامة ، تماما كتلك الأعمدة التى تمتد داخل المسجد ، انهـا تتجاور ولا تتداخل ، وتتساوى دون أن يكون هناك مركز تخدمه وتتجه نحوه ، أن الأعمدة المتجاورة تأخذ كلها وبطريقة متساوية بيد المصلى نحو السماء ، أو كتلك الوحدات الزخرفية فى الأرابيسك ، فكل وحدة كيان مستقل ، وتتجاور دون أن يفنى أحدها فى الآخر ودون أن تكون هناك بؤرة ارتكاز تتجه اليها الأجزاء وتكون فى خدمتها » •

أما صفة الحركة فهى التى أعطت الوسطية خصوصية ، وخلصتها من المرحلة الهلامية والتسيب بين مفهوم الوسطية فى الحضارات المختلفة ، فقد أخذ القرآن الكريم منذ آياته الأولى يلفت العربى الى مظاهر الحركة فى الطبيعة والى هذا التطارد بين الليل والنهار والظلام والنور ، ثم نقل تلك الحركة داخل المسلم فاعترف بواقعية الصراع بين الخـير والشر والالهام والوسوسة والملك والشيطان ، وجعل المسلم فى حالة متنبهة ، وفى خشية دائمة لكى لا يتغلب الشر ، وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم أشد المسلمين تنبها لهذا الوضع ، ومن ثم أكثرهم تضرعا الى الله لكى يثبت على الايمان قلبه ، فقد كان يدرك طبيعة تلك الحركة ، وأن القلب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبهما كيف يشاء ، وأنه كقدر يغلى أو كريشة فى مهب ريح أو كعصفور يتقلب ، ودخلت الحركة بعد ذلك جوف التاريخ ، وأصبحت النظرة الاسلامية ترى الأصل فى الأشياء أن تكون متحركة ، وأن القلب لن يكون قط مهملا ، وأن النفس أشبه بكرة على سطح أملس ، وأن الصادق يتقلب فى اليوم أربعين مرة والمرائى يثبت على حالة واحدة أربعين سنة ، ومن هنا انعكست تلك الحركة على مظاهر المسلم العقائدية والسلوكية والشعورية ، فالعلاقة بين الله والانسـان تقوم على تلك الحركة ، فلا هى تركن الى عالم الانسان فتهدأ ، ولا هى

تتحد بالمطلق فتستقر ، بل هى فى حالة ارخـاء وجذب وتضرع وخشية ورغبة ورهبة وخشية ورجاء • والأخلاق الاسلامية تهدف الى السكينة وهى « ليست شيئا من وراء الحركة ولا تهدف الى العزلة ، بل هى شىء يتولد فى ذروة الصراع وفى ابان القلق والاضطراب فيمنح النفس ثباتا ، ولا يجعل القلق يتحول الى حالة مرضية منزعجة ، فهى ليست حركة فقط ، وليست سكونا فقط ، بل هى شىء يجمع بين الحركة والسكون ، فى أنظومة آخيرة تسمى « السكينة » والفن العربى ليس مجرد قوالب تخلو من الذاتية والتفرد ، بل انه « يخضع للوسطية التى تعـادل بين الفرديه والجماعيه ، وبين الذاتية والموضوعية ، فهو يخضع لنزعة تاريخية تعبر عن روح الجماعة ، وهو من خلال تلك النزعة يكشف عند الموهوبين فقط عن تفرده وابداعه ، وعن روح الفنان التى تسرى فى اللوحة ، فتحيلها الى شىء متحرك وهو ساكن كما قال الصولى » • ومنهج التأليف الأدبى الذى ارتضاه القدماء « يصدر عن وعى ولا يأتى نتيجة التفكك ، أو عدم السيطرة على الموضوع كما يظن لأول وهلة ، بل كان يأتى من منطلق دفع السأم عن القارىء ، وحب التنقل به من موضـوع الى موضوع ••• وهذا المنهج يعكس نفسية العربى التى تميل الى التجديد وحب التنقل وتكره الركون الى شىء واحـد » والأدعية المأثورة احتفظت « بتـلك المسافة الدقيقة بين العبد ومولاه ، فالعبد لا ينسى موقفه ويندمج فى عالم الألوهية ولا هو يبتعد عن ذلك العالم ، فيحتفظ بتلك المسافة الحرجة والتى تجعله دائما مشدودا ، دائرا بين التوفيق والخذلان ، يرنو الى العالم الأعلى ورجله مغروزة فى الأرض ، ومن هنا جاءت الادعية تعكس طبيعة تلك الحركة ، وتشف عن دقتها وعن الاحساس بالمسئولية ، وتلتمس الهداية والتوفيق من العناية الالهية ، فقد كان أكثر دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم : يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك ، انه ليس آدمى الا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله ، فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ » •

فهاتان الصفتان (العدالة والحركة) تبعثـان الأمل فى مستقبـل الوسطية ، فكل اصلاح معاصر انما يهدف الى العدالة الاجتماعية ، وانقاذ الانسان من الجمود والموت ، وبذلك تستطيع الوسطية أن تقف جنبا الى جنب مع كل الثورات الاجتماعية المعاصرة ، فهى تشاركها فى تلك المبادىء الانسانية بل وتتفوق عليها ، فتتقدم هذه المبادىء من خلال فهم لطبيعـة الانسان المتكاملة ، فلا تغلب جانبا على جانب فيحـدث الفصام الذى يؤدى الى الغربة والتمزق • ان الوسطية تستطيع أن تقدم حلا لمشكلة الأصالة والمعاصرة ، فقد رأينا أن الأحكام اما قطعية أو غير قطعية ، وأن السنة اما تشريعية واما غير تشريعية ، ان النوع الأول يمثـل جـانب الاصالة ، أما النوع الآخر فهو يمثـل جانب المعاصرة الذى يخضـع للاجتهاد ، وقد رأينا ان مبدأ ختم النبوة يحمل الانسان مسئولية كبرى كان الوحى يقوم بها نيابة عنه ، ثم يأتى مبدأ الأصل فى الأشيـاء أن تكون مباحة ، فيخلصه من الأصر والأغلال ، ويجعله ينطلق لا يحس بعقد تغل من حركته فقد أحل له ما كان محرما على الذين قبله ، فالاسلام دين انسانى ، بمعنى أنه فطرى لا يتصادم مع حاجات الانسان البيولوجيـة والاجتماعية ، وهو لذلك صالح لكل زمان ومكان ، ان هذا المصطلح الأخير لا يعنى كما فهم البعض مفهوما جامدا يقدم قوالب جاهزة تطرح على الانسان ، فتميت دوافعه وتجمد حركته وتحيله الى طفل يتلقى الأوامر ، بل هو يعنى مفهوما متجددا ، يجعل توجيهات الاسلام مرنة ، ولا تتصادم مع فطرة الانسان التى فطره الله عليها ، ومن ثـم فهى باقية مـا بقى ذلك الانسـان •

* * *

ولكن هذين الشيئين يمثلان فى الوقت نفسه صعوبة الطريق ، فقد يكون سهلا أن نقول : يجب اقامة العدالة وبعث الجذوة ، ولكن الواقع العربى يحـول دون ذلك ، فالتناقض الطبقى يقف حائـلا دون تحقيق العدالة الاجتماعية ، وبعض الرجال ممن يتزيون بزى الدين قد اعتادوا

الالتصاق بالشكليات والاستغراق فى الجزئيات ، فحجب عنهم ذلك الحركة الكلية وتاهت عنهم روح الاسلام ، وكل هذا يذكرنا بموقف الجاهلية قبل الاسلام حين تحولت جذوة ابراهيم عليه السلام الى شكليات تدور حول الختان والطواف ، وحين قاومت رأسمالية مكة الدين الجديد خوفا من طبقة العبيد والمستضعفين فى الأرض • ولكن هناك فرقا بين جاهلية وجاهلية ، فالجاهلية القديمة كانت تحمل فى داخلها امكانية تغييرها وترهص بالفجر الجديد ، أما الجاهلية المعاصرة فهى أشد سوءا ، لأنها جاهلية الالتصاق بالمادة والاستغراق فى الاستهلاك ، والاذعان لهذا الحبل الحريرى الذى تمده أجهزة الاستعمار ، فيطوق أعناقنا ويدغدغ حواسنا ، ويحرمنا تأمل الواقع ومجاوزته •

فاذا استطاع هذا الكتاب أن يثير القلق نحو الوضع الراهن فأظنه قد نجح ، لأننى أعرف أن هناك امالا لم يستطع الكتاب أن يحققها ، فقد لمس الأشياء المعاصرة من فوق وبطريقة سريعة ، وكنت أرجو له مزيدا من التفصيلات ، وأن يهتم بابراز الوجه العالمى للوسطية العربية ، وأن يدرس حركتها خلال علاقاتها بالتيارات الفلسفية والمذاهب المعاصرة ، ولكن عذرى أن هذه أشياء لما توجد بعد فى الواقع ، فاذا استطاع هذا الكتاب أن يساهم فى تمهيد الطريق فهذا يكفيه ، فيقينا سيأتى بعد ذلك مفكر آخر قد يكون من أحفادنا ، فيلتقط ما تناثر فى الجو ويصوغه صياغة عصرية شاملة وكاملة ان شاء الله •